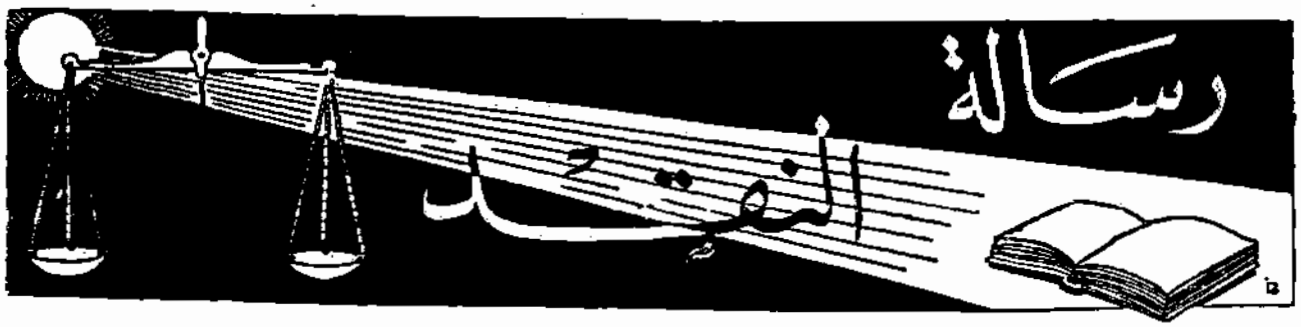

معلقة الأرز

تأليف الأستاذ نعمه قازان

بقلم الأستاذ جورج سلستى

ليس « معلقة الأرز » ديواناً شعرياً بالمعنى الذى تؤديه لفظة ديوان — أى مجموعة قصائد تتفاوت فيها المعانى والمبانى — وتتباين فيها الخلجات والنزوات ، وإنما هو رسالة فى الأدب شاء ذوق صاحبها الفنى أن يحمّلها قصيدة واحدة دعاها معلقة الأرز — والأرز رمز لبنان الخالد مسقط رأس الناظم النازح — وأردفها بمقطوعة شعرية صغيرة دعاها « أنشودة الغريب » بث فيها حنينه إلى لبنان سهوى فؤاده ، ومثار إلهامه .

وتحميل الشعر رسالة فى الأدب بادرة مستحدثة فى الشعر العربى ، فقد كنا حتى اليوم نقرأ رسالات الأدب نثراً لا شعراً ، كما أننا نعرف الشعر مستودع النزوات العاطفية والخلجات النفسانية يعتلج بالخواطر والمرائى والصور

وسيان عندنا أحمّل الشعر رسالات أو نزوات وحمّل الفلسفة والتاريخ والعلم أم اقتصر على تصوير وبثّ خلجات الروح ، فجلّ ما يمنينا أن يحتفظ بسموّه ومكانته وأن يستوعب الفن الرفيع ، ولا يضير الشعر أن يؤدى للناس رسالات فى الأدب إن استطاع الشاعر أن يسمو فيه ويحلّق ، وإن تمكن فيه أن يقنع قارئيه بصحة رأيه وصواب فكرته

والرسالة التى شاء الأستاذ نعمه قازان أن يدفعها للناس فى معلقته يتلخص مرماها فى إيثار المعانى على الألفاظ ، وهى رسالة كثر فيها القول واشتد حولها الجدل

والأستاذ قازان على كل حال لم يأت فى قصيدته بشىء من الحجج الدامغة ليقنع قراءه بفكرته ، أو فى الأحرى بمذهبه هذا وإنما يعرض عليهم آراءه عرضاً وهو يسخر من خصوم المذهب الأدبى الذى يعتنقه سخرية لاذعة فيها التهجم الكثير والتجنى الكثير .

يقول حضرته : « لكم وزنات ولى وزنتى »

ولكن أية وزنة هى هذه التى يريد أن يتاجر بها

إنها وزنة جد راجحة عنده وقد يلقى فى سبيلها كل عناء إلا أنه لن يتخلى عنها مهما لاقى من عنت وإرهاق ، ولن يستطيع أن يثنيه عن إيمانه بها ثانٍ على حدّ قوله : « وما تحرجونى فلن تخرجونى »

وسيبقى ذلك الصابر الذى لا يتزحزح عن عقيدته ولو رجمه الناس :

لئن ترجمونى غفرت لكم   وإن تنبذونى ففى ذمتى

فكأنه بطل من أبطال الإيمان الأولين يضحى فى سبيل

إذ أقول: « وها قد انتهى أمر الثورة » وهو يقول : إن سكون البلاد لا يعنى انتهاء الثورة ، وسوف لا يكون هذا إلا إذا نالت البلاد أمانيها

وأجيب الطالب الفاضل بأننى حين قلت عبارتى تلك لم أكن أقصد هذا المعنى الذى ذهب إليه ومعاذ الله أن أقصده ، وإنه من المحقق أن الثورة وإن أخمدتها القوة اليوم فليس معنى هذا أن النفوس قد هدأت وقرت ، أو أنها رضيت بالمصير الذى يوده لها « القوم » وكلنا يرى هذا ويحسه

على أننى أجىء هنا بأبيات من قصيدة لى تلقى ضوءاً على المعنى الذى ضمنته عبارتى ، والخطاب فى الأبيات موجه إلى الوطن العزيز

وعلاك لم يخضع بنوك ولا ونت   همم لهم كالراسيات عظامُ
هيهات ، تأبى ذاك أخلاق لهم   لا وهْىَ فيها ، لا ولا استسلام
لكنّ من عنت القوى وكيده   شُدت هناك شكيمة ولجام

هذا وإننى أشكر للطالب الفاضل حسن رأيه وأكبر فيه ذلك الروح السامى الذى يتجلى فى رسالته

« نابلس »   فدوى عبد الفتاح طوقان

عقيدته حتى بالنفس ، ومثل هذا السخاء يقدَّر ولكنه فى غير الأدب ، والصبر والإيمان محمودان ولكن فى غير هذا الشأن لا سيما وهو لا يعود على الأمة أو على الأدب بخير ، حتى ولا على صاحبه بشبه خير أو فائدة

فالأدب ميدان تقرع فيه الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ومن قويت حجته رجحت كفته ومشى وراءه تابعوه وإلا خذل وانفرط من حوله حتى عقد المقربين

وإيثار المعنى مستحب ما فى ذلك ريب ولكن الاستهتار باللفظ من أجل المعنى مجتوى مذموم ، وإننا لنلوم الأستاذ قازان لوماً شديداً عند ما نراه يلجأ فى أداء معانيه إلى اللفظ السقيم لا عن جهل أو قصور ولكن عن سابق تعمد وتصميم ، على تعيير أهل الفانون ، كما يؤكد ذلك صديقه الأستاذ توفيق ضعون عضو العصبة الأندلسية فى البرازيل وواضع مقدمة « معلقة الأرز »

ونحن لسنا من المتزمتين ولا المتمتين فى تمسكنا بقواعد اللغة وأوزان الشعر ، ولسنا من دعاة التقيد ولا الجمود إن أهبنا بالأدباء أن يلزموا فى بيانهم وجه الصواب ، ولكنا من دعاة التجدد مثله إلا أن الفرق بيننا هو فى تحديد معنى التجديد . إننا من الأولى يطربهم المعنى الجميل ولكن فى اللفظ الجميل ، وتهزهم الفكرة الفذة ، ولكن إذا صيغت فى قالب مصقول ، لأننا نرى أن تصبح اللغة فوضى فى حين أنَّ لها ضوابط وقواعد يتحتم على من يريد الإبانة فيها أن يتقنها

إننا نضنّ بها أن تنحدر من سمتها الرفيع إلى حضيض اللحن الوضيع .

وماذا يحل باللغة لو ترك الحبل فيها للأدباء على غاربه يصوغ كل متأدب ألفاظه على هداه ، وينظم كل شاعر أبياته على منحاه يخبط فى ألفاظه وفى قوافيه ، والألفاظ أكسية المعانى ترفل فى المنمق منها وتتيه ، وتسمج فى السخيف وتشوه .

وإن كان الأستاذ قازان يحسب أن الاستهتار باللغة من دواعى التجديد ، فقد أخطأ كل الخطأ .

إن مجال التجديد رحبٌ ، وإنه ليستطيع أن يزاوج بين ألفاظه كما فعل البحترى من قبل ، ويأتينا ببيان مرموق فيه كل الجدة والطرافة دون أن يلجأ إلى الحوشى الغريب من الكلمات ، والبيان نفسه يستنكر استعمال اللفظ غير المأنوس .

والمزاوجة بين الألفاظ وحدها منزلة عليا من منازل البيان ومرتبة سامية من مراتبه يستطيع الأديب أن يرقى إليها إذا جشم نفسه قليلاً من التدقيق والتعمق والمران

ويستطيع الشاعر إن كان من ذوى القدرة على التوليد والابتكار ، ومن ذوى المواهب ، أن يتعدى نطاق الأوزان المعروفة ، على أن يأتينا بشعر سائغ موزون كما فعل بعض شعراء الأندلس من قبل . والشعر كالموسيقى تلزمه الأذن المرهفة ، والحس الدقيق والخيال السمح ، ومن أوتيها أوتى حظاً كبيراً ، وتمكنه من غير جهد ولا عنت أن يمهر الأدب بقصائد خالدة تبقى جدتها خالدة على الدهر

ثم ليس من التجديد فى كثير أو قليل ، ولا من رعاية حق الأدب وحرمة الأدباء فى شىء أن يطعن المعاصر أدباءنا الأقدمين وأن يقول الأستاذ قازان فى (شوقى) ومريديه مثلاً ، وقد حسب فيهم أصنام الأدب :

دعاة الأمير سلام عليكم ... من الخارجين على الدعوة
لقد طلع الفجر من غمده ... وبان اللبابُ من القشرة
ومات الأمير عليه السلام ... فماذا لديكم سوى الجثة ؟
عفا الله عنه عفا الله عنه ... فلا يستحق سوى الرحمة

فشاعر له مكانته الرفيعة فى الشعر وله أياديه البيضاء على الأدب، شاعر كان من أترابه الشعراء فى الطليعة بخياله الوثاب ، وأسلوبه الرفيع ، لا يجوز أن يقال فيه ، وهو الذى مر التراث الأدبى بحافل من روائعه التى خلفها للأجيال من بعده تنطق عنه ، مثل هذا القول !

إننا لا نستصوب الإمارة فى الشعر ولا الملكية فى الأدب ، ولكن عدم مشايعتنا لهذا الرأى لا يمنعنا أن نثبت الحق لذويه ولا يحفزنا للطعن فيهم .

أما تحديد الشعر وكيف يجب أن نفهمه فيمرّنا إياها الشاعر بقوله :

فلو كان معنى الحياة لمرى ... بخطٍّ تآلفَ فى صورةِ
وكان جمال الحسان الملاحِ ... بكحل العيونِ وبالزينة
وكان الشبابُ وعزمُ الشباب ... بحسنِ الوجوه وبالبزّة
وكنتُ وكنتم بأجسادنا ... لقلتُ : هو الشعرُ باللفظة
ولكنه الشعر روحٌ بنا ... ولكنه الشعر فى الخلجة

فما الشعر بالكأس براقةً ولكنه الشعرُ في الخمرةِ

وفي هذا بعض الحق لا الحق كله . وإننا لنسأل الشاعر : ألا يشين الجمال تستّره بالأطمار ويحطّ من قدر القافية الرائعة الحسن ارتداؤها الرثّ الخَلَق من الثياب ؟

أجل، إننا لنجاريه في رأيه ولكن إلى حد، فليست الكأس هي التي تهزّنا وإنما الخمر التي فيها

ولكن ألا يُعرَض عن احتساء تلك الخمر إذا أديرت على الشاربين في كؤوس لا تهفو إليها النفوس وتنأى منها الشفاه !

إننا لنميّز الجمال حين يتشح بالأطمار ولكنه سرعان ما تصدر عن قلوبنا لدى رؤيته آهة ملؤها التحسر والتمني ، آسفين أن تدفنه تلك الأطمار متمنين لو يُسبغ عليه كساء يلائم سناه ليبدو بما هو جدير به وأهل له ، فتنة للناظر ومتعة للخاطر

وإننا نود أن نحبس تلك الآهة ونكبت ذلك التمني لدى مرأى الحسن، ولن نستطيع ذلك إلا إذا كان رافلاً في حلله الزاهية القشيبة والديباجة المشرقة لابد منها للشعر السامي ؛ والديباجة المشرقة هي التي تعوز صاحب معلقة الأرز ، وخلو القصيدة من الكبوات والهفوات هو ما يتطلبه الشعر العالي ، والهفوات وقع فيها شاعرنا كذلك

ولئن غفرنا له سناد التأسيس في قوله :

وبت ولي مقلة الجانحين كأعمى يفتّش عن إبرة

فلا في القديم ولا في الجديد (مسكت؟) طريقي إلى غايتي

وسناد التأسيس من عيوب القافية . أو سناد الردف في قوله :

فلو كان معنى الحياة لعمري بخط تآلف في صورة

وكان الشباب وعزم الشباب بحسن الوجوه وبالبزة

وسناد الردف من عيوب القافية أيضاً . أو الجوازات الشعرية المستهجنة كقطع همزة الوصل في قوله :

إذا صار أمسي ويومي غدا فيارب اضرب على مقلتي

أو الأخطاء في استعمال الألفاظ كقوله :

وسبحان ربي مَعين العطاء يخصُّ النباهةَ بالنملةِ

وصوابها : يخصّ النملةَ بالنباهة

أو أخطاء اللغة كقوله :

ربيتُ طليقاً على فطرتي ويا ما أُحيلى طفوليتي

وصوابها : طفولتي ، ومثلها ألوهيتي في قوله :

فترتُ وثارت أنانيتي فضمتُ وضاعت ألوهيتي

وصوابها ألوهتي . الخ

أجل، لئن غفرنا له هذه الأخطاء وأمثالها مما قد يقع فيه كلّ متأدب ، فلن نغفر له تساهله في استعمال الأخطاء وحشرها في أبياته بين قوسين دلالةً على معرفته لها وتعمده استعمالها .

وتعمد استعمال الأخطاء خطيئة مضاعفة يلام عليها صاحبها أشد اللوم وأعنفه وما نحسب أنفسنا مغالين في هذا أو مسرفين

وإنه ليعزّ علينا أن يتجنى بعض المجددين على ما يعدونه قديماً فتعمى بصائرهم لا عن جمال البيان وروعة الأداء فحسب ، بل عن روعة الأفكار التي يريدون حمل لوائها ؛ كما يعز علينا كذلك أن يتجنى بعض المحافظين على القائلين بالتجدد والآخذين بأسبابه .

وقول الأستاذ قازان إنه لم يعثر في قديم الشعر على معنى طريف يستوقفه ، وإنه غاص فيه إلى أعماقه ، فلم يروِّ نفسه العطشى :

« فكنت وبي عطش قاتلٌ كمن يشربُ الماء بالشوكة »

خطلٌ ما في ذلك ريب بل ضلالٌ عن وجه الحق والصواب

ولقد وقع في مثل خطأه من قام بالأمس يجرد المنفلوطي من أدبه في إحدى المجلات الأدبية البيروتية . وصدور مثل هذه الآراء عن أدباء الجيل الطالع من الشباب تجن ما بعده تجن ، ولا يقل عن هذا بعداً عن الحق قول الدكتور عمر فروخ في « جبران خليل جبران » في العدد ٣٣ من مجلة (الآمالي) البيروتية الصادر في ١٤ نيسان في مقال « الخالدون في الأدب » حيث قال فيه بعد أن عدد مزايا الأديب وعناصر أدبه :

« هذه هي العناصر الأولية التي لا يجوز لنا أن نطلق لفظة أديب على رجل إلا بها وجبران مجرد منها جميعاً »

وقوله في المقال نفسه : « للأدب كما قدمنا مقاييس مشهورة لا يتمتع جبران بواحدة منها »

فنفي الأدب عن أديب كبير كجبران كنفيه عن أديب كبير كالمنفلوطي. وإن ما فيه من التجني والظلم، إن وقع فيه الأدباء الناشئون فلا يصح أن يقع فيه أديب كالدكتور عمر فروخ له من ثقافته العالية وذوقه الأدبي الممتاز ما يعصمه عن مثل هذا الشطط

ومعلقة الأرز ما عدا ذلك فيها شاعرية وثابة يحق لنا أن نستبشر منها بالخير فإنّ من يقول :

إذا الشعر سُخِّر في أمة فصلٌ ورحم على الأمّة

ومن يقول :

« فلا لقي الليل في برده إذا لم أمزّق به بردتي
ولا طلعَ الفجرُ يوماً عليّ إذا لم يلدني مع الطلعـــة »

ومن يستشهد بقول النبي :

« إن تحت العرش كنوزاً مفاتيحها ألسنة الشعراء »

لشاعرٌ لن يكبّـل نفسه بأوضاع المناسبات ، ولن يسخر ضميره لما لا يشعر به ولا يحس ؛ شاعر طموح نأمل أن يأتينا بالعذب المبتكر من الشعر النابض الحي ، وأن يفتتح بخياله الوثّاب بعض الكنوز المغلقة تحت عرش السماء .

ومعلقة الأرز تزخر بعد هذا بالحنين ، حنين المغترب إلى وطنه الحبيب ، وله في ذلك أبيات رقيقة صادرة عن نفس صهرتها الأشواق ، آثر فيها بلاده وأمته على بلاد العالم وأممه جميعاً .

أقول بقـاع الدنى حلوة وأحلى بقاع الدنى بقعتي
فلا ، لا أريد سوى موطني ولا ، لا أحب سوى أمتي

وقوله في « أنشودة الغريب » وفيهـا رقة وعاطفة ، يخاطب لبنان :

رويت من (دي ؟!) غذيت من لحى
يا حاضـــنًا أمي يا ثرى لبنانْ

* * *

هل يرجع الغريب للوطن الحبيب
وتهتف القـلوب مرحباً لبنـان

* * *

الأرز والوادي يا مهد أجدادي
يا أرض ميعادي يا ثرى لبنـان

* * *

ثم لا أرى بدأً قبل أن أختم مقالي من أن أقول إن لشعر قازان ميزة أخرى هي الصدق في التعبير عن خلجات نفسه تعبيراً لا مداورة فيه ولا رياء وذلك عائد إلى ما يتراءى لنا من حبه الحق ولو كان عليه ولثقته بنفسه ثقة كبيرة ، ومن ثم جاء شعره خالياً من كل بهرج وكل طلاء ، وتجلت فيه مزايا النفس الجريئة الأبية كقوله عن نفسه :

وليس التملق من شيمتي وليس التأنق من نزعتي
فإني ترعرعت بين الجبال على البأس والفقر والشدة
ومن عاش مثلي على جرأة فلا يستـلذ سوى الجرأة
فإما نطقت نطقت بحق وإما سكت فمن عفـة

وما يخاله فيما قاله عن نفسه إلا صادقاً ، والصدق على ما نعتقد من أجل ميزات الأديب ؛ وصاحب معلقة الأرز عنده من المزايا الأدبية ما يفسح له في دولة الشعر مجالا رحباً يمشي فيه إلى غايته المثلى ، ولا يعوزه إلا صقل ديباجتـه وتهذيب بيانه ، وليس ذلك على مثله بعزيز . فإن له من ملـكته الفنية خير مسعف ومن خياله الوثّاب خير معوان

فليوطّن النفس على إجادة مبانيه لتوافق معانيه إن كان يريد أن يتبوأ المنزلة الرفيعة التي تصبو إليها النفس الطموح

(بيروت) جورج سلستي

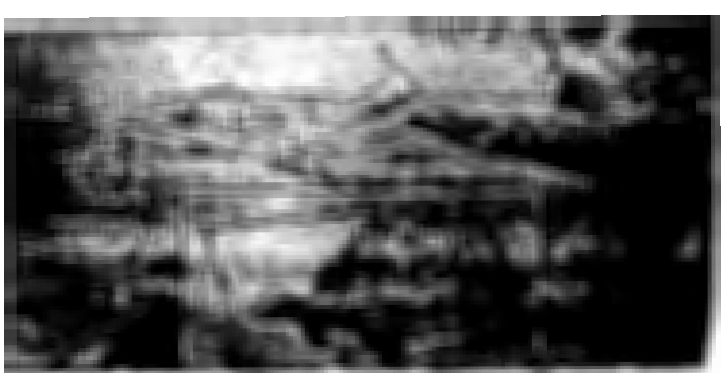

أما الآن بعد ما نجح العلم الحديث في اكتشاف أسرار هرمونات الجسم وقدم لنا علاج الحب باسم لولوتيطين فقد صار في قدرتك أن تستعيد قوى شبابك المفقودة باستعمال هذا المستحضر . إن لولوتيطين يعمل تحت رقابة مستمرة من معهد التناسليات الشهير بمدينة برلين . ولكي تقف على حقائق المسألة الجنسية يجب أن تطالع كتاب « الحياة الجديدة » الذي يمكنك الحصول عليه نظير ٥ مليمات للنسخة الفرنسية والإنجليزية المحلاة برسوم ذات صحة الواردة أو ٣ للنسخة العربية . أرسل المبلغ طوابع بريد إلى جلانهورزمين ـ صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر
ارفضوا كل علبة غير مكتوب عليها : تعبئة خاصة للشرق جرعة قوية